

## سؤال الهوية في شعر لسان الدين بن الخطيب (ت ٧٧٦هـ)

أ.م.د. بشار نديم أحمد الباجي \*

تاريخ التقديم: ٢٦/٧/٢٠٢٠

تاريخ القبول: ٣٠/٨/٢٠٢٠

### المستخلص:

يعاني مصطلح الهوية غموضاً يعود إلى الأهمية التي يحظى بها، وتداخله في ميادين معرفية متنوعة، مع ما شهده المفهوم من قابلية للتغير وللتطور عبر مسارات الفكر الانساني، وهوية الأندلس كانت معروضة على المحك دائما لاسيما في بدايات الحضور العربي الإسلامي فيها. لكن هوية الأندلس برزت أيضا في نهاية الوجود الإسلامي مجددا لتحتل مكانة بارزة نظرا لضخامة التحديات التي واجهت الوجود الإسلامي فيها وانتهى تلك النهاية المأساوية. وبدأت قضية التعبير عن الهوية والتميز تظهر بقوة في شعر لسان الدين بن الخطيب، في زمن عاشه كان مفعما بالتحديات الوجودية الخطيرة.

والمتتبع لشعر ابن الخطيب يجد أن شعره كان مرآة لدوره السياسي النشط، ونجد أن "أنا" الشاعر تتماهى مع "نحن" التي تمثل انتماءه القومي والديني، وهذا التماهي كان ضروريا للحفاظ على هوية الأندلس التي كانت مهددة بحملات صليبية عنيفة تهدد وجودها.

ومن مظاهر الشعور بالانتماء إلى هوية مركزية هذا الشعور بالألم والحسرة التي تظهر في قصائد ابن الخطيب حين كان منفيا، وهذا الشعور تكوّن نتيجة حس كامن في دخيلة الشاعر بانتماء واحد يجمعه مع من ظلمه.

مصطلح الهوية من أكثر المصطلحات اتساعاً لأنه حاضر في مجالات بحث متنوعة " علم النفس، علم الاجتماع، السياسة، الفلسفة، الأدب. وهذا الحضور المتسع للهوية جعل

\* الجامعة التقنية الشمالية/ الموصل .

منه "مفهوما مفتوحا، يمكن أن ندرج في سياقه ما نريد من الدلالات" (١) فهو مصطلح يحيل إلى فضاء دلالي واسع. والبحث فيه يعدُّ مغامرةً غير مضمونة العواقب لغموض المفهوم وطبيعته غير القابلة للتحديد .

وسبب هذا الغموض يعود لتداخله مع حزمة مفاهيم ومصطلحات شتى متقاربة ، وقد أدرك الباحثون عمق هذه العلاقات الشائكة بين هذه المصطلحات والمفاهيم، ونبّه أحد الباحثين إلى العلاقة الوشيجة التي تربط الهوية بالثقافة فقال: "إنَّ العلاقة بالثقافة تبدو أكثر وثوقاً، فهناك ما يقترب من التطابق بين المفهوم الذي نحدده للثقافة والمفهوم الذي نحدده للهوية" (٢) ويتداخل مفهوم الهوية مع مفهوم الماهية بزيادة حرف الصلة "ما" على الضمير المنفصل "هو" وقد "يجعل البعض الماهية أكثر عمقا من الهوية . وفي اللغات الأجنبية لكل لفظ منفصل ماهية Essence من اللاتينية Esse وهو فعل الكينونة. ولفظ هوية Identite من اللفظ ID أي هو" (٣) وتداخل مفهوم الهوية أيضا مع المفهوم الفلسفي الآخر الجوهر "وإذا كان مفهوما الماهية والهوية مشتقين لغويين من نفس الجذر "هو" فإنَّ الجوهر استعارة من علم المعادن من الجوهر النفيس، فالشيء جوهر أي غالٍ، وهو في نفس الوقت لبُّ الأشياء كالمعدن النفيس" (٤) .

ويعود جزء من مشكلة تحديد مفهوم واضح ومحدد للهوية إلى أنه يراد منه التعبير بكلمة واحدة عن مضمون شديد التركيب والتعقيد والتنوع والعمق والاتساع. ويعود جانب من غموض هذا المفهوم أيضا إلى الأهمية التي يحظى بها، وتناوله في ميادين معرفية متنوعة، مع ما شهده المفهوم من قابلية للتغير وللتطور عبر مسارات الفكر الانساني.

(١) الصراعُ اللغوي وخطاب الهوية في الجزائر، حسين الزاوي، مجلة دراسات عربية ، العددان ٥-٦،

بيروت، مارس، ١٩٩٩م، ٣٢

(٢) المسألة الثقافية وقضايا اللسان والهوية، محمد العربي ولد خليفة، ديوان المطبوعات الجامعية،

الجزائر، ٢٠٠٣، ١٠٨

(٣) الهوية ، حسن حنفي حسنين، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠١٢ ، ١٠

(٤) الهوية، حسن حنفي، ١١

مفهوم الهوية - كما يبدو - مفهومٌ هلاميٌّ يحتملُ العديد من المعاني والتفسيرات ويتداخل - غالباً - مع مفاهيم أخرى أو يتم تداوله بدلاً عن هذه المفاهيم لتداخلها وتشابها مع تلك المفاهيم. وهذا التداخل يساعد أحياناً على جلاء المعنى وتوضيحه، وفي أحيان أخرى يكون سبباً في تعقيد المعنى وغموضه بسبب مجالات الاستخدام الواسعة التي يتعامل معها.

كما أن المصطلحات والمفاهيم في العلوم الإنسانية تعاني من إشكالية في التعريف وتحديد المعنى فهي تتنوع في معناها ودلالاتها بتنوع الزمان والمكان وتنوع التوجهات الفكرية التي تتناول هذا المفهوم أو ذلك.

وقضية الهوية بدأ طرحها في الأوساط الثقافية العربية مع بدايات الاحتكاك بين الحضارتين الغربية والعربية الإسلامية، لاسيما بعد انتشار الهيمنة العسكرية الغربية، لأن الغرب سعى إلى نشر ثقافته وأنموذجه الحضاري في هذه المجتمعات، فعمل على إذابة معالم الثقافة العربية الإسلامية، هذا الموروث الثقافي الذي يُعدُّ عنصراً رئيساً من عوامل ثبات الأمة في صراعها للتحدي والبقاء ويُمكنها من ديمومة بقائها ويحافظ على وجودها وكيانها الحضاري.

وسرعان ما وجد هذا المصطلح طريقه في الدراسات الأدبية، وحاولت تطبيق هذا المصطلح في مجال الدراسة النقدية، وكُتبت رسائل جامعية وبحوث علمية عدة، منها دراسات تناولت هوية الأندلس التي كانت معروضةً على المحك دائماً ولاسيما في بدايات الحضور العربي الإسلامي فيها، لكن قضية هوية الأندلس برزت أيضاً في نهاية الوجود الإسلامي مجدداً لتحل مكانة بارزة نظراً لضخامة التحديات التي واجهت الوجود الإسلامي فيها وانتهت تلك النهاية المأساوية .

ومصطلح الهوية يمكن أن يتسع مداه ليكون دالاً على ذات الشخص ويكون دالاً على الجماعة، فهناك هوية فردية، وهناك هويات قومية ودينية وطائفية ومهنية ولغوية وثقافية .

وهذا المصطلح يبدو كأنه كائنٌ متغيرٌ "فإذا كانت الهوية حقيقةً تنمو وتتكامل وتتضح، وإذا كانت حقيقةً وجوديةً تتطوي على عوامل وجودها وبذور نمائها، فإنها - وذلك هو

منطق الأشياء - تنطوي على بذور فنائها وانشطاراتها، حيث تتعرض وبفعل عوامل عدة متعددة تربوية واجتماعية وثقافية للتشويه والانكسار".<sup>(١)</sup>

فالمصطلح يحمل جانباً حركياً قابلاً للتغير وللتبدل، وقابلاً لقراءاتٍ متنوعة، ومحكوماً بظواهره الزمانية والمكانية وهو يكتسب ثباته ودلالاته في سياقه الذي يدور فيه، وهو من أكثر المصطلحات "تغلغلا في عمق حياتنا الثقافية والاجتماعية اليومية، ومن أكثرها شيوعاً واستخداماً"<sup>(٢)</sup>

إنَّ الشروط التي لا بدَّ أن يتصفَ بها أيُّ مصطلحٍ أو مفهومٍ يُراد ترجمته أو استعارته من لغةٍ أو خطابٍ نقدي إلى حاضنةٍ ثقافيةٍ أو لغويةٍ أخرى لا بدَّ أن تتوفر فيه مزايا ضرورية منها القارية والتصور الأوحد الذي وقع عليه التواطؤ والشيوخ والثبات والديمومة والاستمرارية والشمولية والمدلولية الواحدة، ويكون جامعاً مانعاً ومحدداً فضلاً عن الدقة والوضوح وعدم الترادف ودرجة الصفر الدلالي، والابتعاد عن الدلالة الاعتبارية، وعن اللغة المجازية والبلاغية، وارتباط الصوت الدال بالتصور، والمفهوم الواحد واللفظ الواحد، ومرجعية الحقل المعرفي الواحد<sup>(٣)</sup>

### الهوية لغة:

الدخول إلى حقول المعرفة الإنسانية لا يتأتى إلا عبر مصطلحاتها الدالة عليها، وليس هنالك من سبيل يتوسل به الإنسان إلى فهم واستيعاب أي علم غير ألفاظه الاصطلاحية، فهي تقوم من كلِّ علمٍ مقامَ جهاز من الدوال، وأهمية الوعي بالمصطلح تقود بالضرورة إلى حتمية النظر في تشكلاته اللغوية.

ومصطلح الهوية ليس عربياً في أصله، فهو مصطلح منقول وصل إلينا من خلال الترجمات، والمعاجم العربية تكاد تخلو من كلمة (الهوية) كما هو متعارف عليها اليوم، فهذه المعاجم تكلمت عن (الهوية- بفتح الهاء) التي تعني البئر أو الحفرة البعيدة القعر، قال ابن الأعرابي: هوية أراد أهوية فلما سقطت الهمزة رُدَّت الضمة هاء...وفي

(١) الهوية، اليكس مكشيللي، ترجمة د. علي وطفة، دار الوسيم للخدمات الطباعية، دمشق، ١٩٩٣، ٨.

(٢) م-ن، ٧

(٣) ينظر: نظرية المصطلح النقدي، عزت محمد جاد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، ٢٠٠٢،

القاهرة، مصر ٦٢.

الحديث: إذا عَرَسْتُمْ فاجتنبوا هُوِيَّ الأَرْضِ، وهي جمع هُوَّة وهي الحفرة والمطمئن من الأرض<sup>(١)</sup>. وقال صاحب القاموس المحيط، عن مادة هَوَوَ: "الهَوَاهُةُ، وَتُضَمُّ: الأحمق، والبر لا مُتَعَلِّق لها ولا موضع لرجل نازلها، لُبُعد جالِيها. والهَوِيَّةُ، كَعَنِيَّة: البعيدة القعر"<sup>(٢)</sup>.

وتوسع "فتحي المسكيني" في الكلام عن طبيعة التمايز والتشابه بين الهُوِيَّة "بفتح الهاء" والهَوِيَّة "بضم الهاء"، فذكر أَنَّ "فلاسفتنا القدامى استعملوا لفظة "هُوِيَّة" المتحولة من الضمير المفرد المذكر الغائب "هو"، بوصفه مقابلاً للفظة "إسنين" في اليونانية و"هسن" في الفارسية، للدلالة على وجوه المعنى الذي أقره أرسطو لمفهوم الوجود، وأن لفظة "الهَوِيَّة" مستعملة في ترجمة "مابعد الطبيعة" التي فسرها ابن رشد للدلالة على معنى "الوجود" في اليونانية<sup>(٣)</sup>. ويضيف قائلاً: "إنَّ الانزياح من لفظة "هُوِيَّة" من المعنى الانطولوجي الوجودي الدال على معنى الوجود، كما استعمله الفارابي وابن رشد، إلى المعنى الابستمولوجي المعرفي الحديث لأننا معمول به منذ ديكارت إلى كانت، هو واقعة فلسفية"<sup>(٤)</sup>.

### الهَوِيَّة اصطلاحاً :

يُمارس المصطلحُ دور البؤرة التي تُشكِّل المعرفةَ أو الحقلَ المعرفي، والمفهوم الذي ينطوي عليه شكل المصطلح يتعدد بسبب تعدد حقول المعرفة، وتبعاً للأثر التاريخي الذي يُطور المفهوم، و البحث عن منظومة المفاهيم الاصطلاحية وحدودها أمرٌ يصعب ضبطه لأسبابٍ كثيرةٍ أبرزها الغموضُ المعرفي والانزياحات التي تحدث في دلالة المصطلح من تضخيم وانحراف وضمور دلالي مما يؤدي إلى اضطراب وضبابية في مفهوم

(١) لسان العرب، ابن منظور ، إعداد وتصنيف: يوسف خياط ونديم مرعشلي ، دار لسان العرب، بيروت، ١٩٧٠، ١٨٩/١

(٣) القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي: مراجعة: أنس محمد الشامي و زكريا جابر أحمد، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٨، مادة: هَوَوَ، ١٧١٧

(٣) الهُوِيَّة والزمان (تأويلات فينومينولوجية لمسألة -النحن-) فتحي المسكيني ، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ٢٠٠١، ٦ .

(٤) م. ن، ٧

المصطلح<sup>(١)</sup> . وبالرغم من بساطة ظاهرية يظهر فيها المفهوم، إلا أنه بالضد من ذلك يحتوي صعوبة تُشكل تعقيداً للمشكلة، نظراً للتنوع في الدلالات والمصطلحات، وحين نحاول إيجاد تعريفٍ لـ "الهوية" تبرز أمام الباحث تساؤلاتٌ ملحةٌ تضطره إلى السعي لتقديم نظرةٍ ثانية في ذلك التعريف.

ولذلك عدّ أمين معلوف "الهوية" من المصطلحات المراوغة المضللة، لأنها توحى بالشفافية لكنها في الوقت نفسه تعدُّ الأكثر خيانة، لأنَّ الإنسان يستعيب -أحياناً- عن حريته بعناصر من الهوية، وهذه العناصر سواء أكانت دينية أم قومية، تختصر وتختزل كلَّ الهوية، لكنَّ الهوية تضمُّ عدة عناصر. لذا ميَّز في كتابه "هويات قاتلة" بين الانتماء و الهوية. فاضطر إلى استعمال الهوية بصيغة المفرد والانتماء بصيغة الجمع. ورأى أنَّ هناك تنوعاً في الانتماءات، لكنها لاتحمل الأهمية ذاتها. فالانتماء الذي عدّه ضرورةً في مرحلة ما، قد يتحول إلى عنصرٍ ذي أهمية أقل في مرحلةٍ أخرى، وهذا ملاحظٌ في طبيعة الانتماء الاجتماعي والطائفي، فهو بطبيعته متقلبٌ بتغير قناعات الأفراد، فيغيرون قناعاتهم بتغير انتماءاتهم وتنوعها، وعبر عن هذا بجدلالية "الثابت والمتحول" التي تؤكد على مفهوم "الهوية المتنوعة"<sup>(٢)</sup>.

ويُعدُّ "مفهوم الهوية" مفهوماً حديثاً - نوعاً ما - ومرتبطاً بالوجود وبالذات وبالتراث الثقافي، كما يرتبط بالتنوع والتعدد والتغير والاختلاف، أو بالتمائل والتشابه وبالثبات الاجتماعي في صيغته المتنوعة، وبالتنوع في مستوياته المعرفية، وفي تعدد سياقاته التي أنتجت الوعي الاجتماعي الذي أثار أسئلةً تقترب بالهوية في الدلالات والأبعاد والمكونات الأساسية لها، وعلاقاتها التي تعدُّ ثابتةً أو متغيرةً بين مكوناتها، ومن كونها وعياً يشوبه التوتر والالتباس في العلاقات بين المكونات من ناحية، وعلاقتها مع الآخر من ناحية ثانية .

(١) ينظر: المطابقة والاختلاف، عبد الله إبراهيم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٤، بيروت

٥٦١،

(٢) ينظر: الهوية والانتماء، أمين معلوف العابر للتخوم، عبده الوازن، كتاب دبي الثقافية، أبريل

٢٠١٢، ص ٢٢.

والهوية في الثقافة العربية هي الامتياز عن الأغيار من النواحي كافة، وهذا اللفظ يطلق على ثلاثة معانٍ: كما ذكر الكفوي (ت ١٠٩٤ هـ) : التَّشْخِص، والشخص نفسه، والوجود الخارجي... "إنَّ ما به الشيء هو باعتبار تحققه يسمى حقيقةً وذاتاً. وباعتبار تشخيصه يسمى هُويَّة. وإذا أخذ أعم من هذا الاعتبار يسمى ماهية" وهي "الأمر المتعلِّق من حيث أنه مقولٌ في جوابٍ: ما هو يسمى ماهية، ومن حيث ثبوته في الخارج يسمى حقيقةً ومن حيث امتيازه عن الأغيار يسمى هُويَّة" (١) . وهذا التعريف لمصطلح الهوية قريب مما ذهب إليه الفارابي (ت ٣٣٩ هـ) حين قال: "هُويَّة الشيء وعينيته وتشخيصه وخصوصيته، ووجوده المنفرد له، كلُّ واحدٌ" (٢). والهوية عند الجرجاني (ت ٨١٦ هـ) "الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق إشتمال النواة على الشجرة في الغيب المطلق" (٣) . وعند تقديم تعريف للهوية نجد اختلافات واضحة لدى الباحثين، لكنها تلتقي عند نقطة واحدة تشير إلى أن الهوية تعني شعوراً جماعياً أو فردياً بالذات، أو هي محصلة وعي بالذات، أي امتلاك الفرد أو الجماعة خصائص محددة تميزهم عن الآخرين، وتحقق كينونتهم، وهذا الشعور بالانتماء يتحقق منذ ولادة الطفل لأنه يأتي حاملاً معه منذ ولادته عناصر هويته، فهو يأتي حاملاً معه جنسه وأبوته وأمومه واسمه ومواطنته، وهذه لا تصبح مكوناً من الهوية حتى يدركها الطفل ويبدأ بتعريف نفسه عليها، وتبرز هنا الأهمية التي يجب التركيز عليها، وهي وعي وإدراك الهوية، فالمكونات والخصائص لا تصير هوية متميزة حتى يدركها الإنسان ويستعملها للتعبير عن هذه الهوية، و الهوية أيضاً تشير إلى صور الفردية والتميز الذاتية التي يحملها الإنسان وتظهر بادية عبر العلاقات مع الآخرين، والهوية هنا ليست حكرًا على المستوى الفردي، فيمكن تطبيق ذلك

(١) الكليات ، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، لأبي البقاء أيوب بن موسى بن حسين الكفوي، مؤسسة الرسالة ط٢، ١٩٤١هـ، ١٩٩٨م، ٩٦١.

(٢) رسائل أبي النصر الفارابي، رسالة التعليقات ، طبع في مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، حيد آباد الدكن، ١٣٤٥هـ، ٢١.

(٣) "معجم التعريفات، للعلامة علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني، تحقيق ودراسة محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة ، ط ٥، ٢٠٠٤، ٢١٦."

على المستوى الجماعي أيضاً، لتصبح في هذه الحالة صورة الجماعة وتميزها واختلافها عن الآخرين، وتكون الهوية في هذا التعريف في حالة تغيرٍ وتحولٍ وتكونٍ مستمر . وعرفها إليكسي ميكشيللي بأنها "مركبٌ من العناصر المرجعية المادية والاجتماعية والذاتية المصطفاة التي تسمح بتعريفٍ خاصٍ للفاعل الاجتماعي، والهوية بالنسبة للفاعل الاجتماعي "مركبٌ من العمليات والأطروحات المتكاملة التي تفسر العالم وتأخذ صيغةً تعبيريةً خاصةً يُطلق عليها النواة الهويةية، وتضرب الهوية الذاتية للفاعل الاجتماعي جذورها في غمار الإحساس بالهوية الذي يمنح الكائن الاجتماعي التماسك والتوجه الدينامي على نحو شمولي"<sup>(١)</sup> ونخلص في ضوء هذا التعريف إلى أنّ الهوية "مجموعة من السمات المادية والمعنوية التي تسمح لنا بتعريف موضوع أو شيء معين، وتتكون من جانبيين موضوعي وذاتي فالموضوعية: تعني وجود مجموعة من سماتٍ وعناصرٍ مكونةٍ لها، والذاتية: تعني اصطفاءً واختياراً أيّ جزءٍ من هذه السمات والعناصر".

ومفهوم الهوية عند الباحثين في علم الاجتماع أخذ جوانب متعددة لها مقاربات من زوايا عدة، لكنها بشكلٍ عام لها تعلقٌ بتصور الناس لأنفسهم وفهمهم لما يظنون أنه ضروري لحياتهم، وهذا الفهم تتشكل انطلاقاً من خصائص معينة لها الأولوية على ما سواها من مصادر المعنى والدلالة.

وهناك تعريفات أخرى للهوية تستحق الإشارة إليها كتعريف محمد عابد الجابري الذي ذكر أنّ "الهوية وجودٌ وماهيةٌ، وفي المجال البشري، مجال الحياة الاجتماعية على الأقل، والوجود سابقٌ للماهية دوماً، الشيء الذي يعني أنّ الماهية ليست معطىً نهائياً بل هي شيءٌ يتشكل، يتشيء، يصير"<sup>(٢)</sup>.

والهوية عند أمين معلوف "مسألة فلسفيةً جوهريةً منذ قول سقراط الشهير إعرف نفسك بنفسك وصولاً إلى فرويد مروراً بفلاسفة كثيرين آخرين، والتصدي مجدداً لهذا التحديد في أيامنا الراهنة يحتاج إلى كفاية أكثر مما أملك، ولذلك نرى بأن هويتي هي التي تعني أنني

(١) "الهوية"، أليكسي ميكشيللي، ترجمة د. علي وطفة، دار الوسيم للخدمات الطباعة، دمشق، ١٩٩٣،

٢٦.

(٢) "مسألة الهوية"، العربية والإسلام والغرب، الدكتور محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة

العربية، سلسلة الثقافة القومية، ط٤، ٢٠١٢، ١٠.



لا أشبه أي شخص آخر" (١)، ومن الواضح أن معلوف حدد موقفاً فردياً في نظريته إلى الهوية. ويرى سليم مطر "أن مفهوم الهوية واسع وشامل لكل الخصوصيات، فرداً أو مجموعة، إن هوية الشيء تعني ماهيته وشخصيته الموحدة والدائمة التي تميزه عن باقي الهويات التي يتكون منها الوجود بكل معانيه" (٢).

ومن خلال قراءات للعينات التي مرّت بنا لتعاريف الهوية، وجدنا أن "معظمها يؤكد على تمييز هوية الإنسان بأنها حقيقته التي تجعله مختلفاً عن الآخر وتميزه عنه، وبالرغم من أن البشر جلهم متساوون، لكن يمكننا القول أن هوية الإنسان هي التي تُحدده انتماءه، فبعض التعاريف ربطت بين هوية الإنسان وانتمائه، فهي محصلة الانتماءات التي تتجلى في انتماء ذي عناصر وخصائص مختارة بوعي أو بدون وعي لتعريف الإنسان سواء أكان فرداً أم جماعة" (٣).

ومن خلال التعريفات التي سبقت لمفهوم الهوية لغوياً واصطلاحاً يمكننا تقديم تعريف للهوية بأنها "منظومة من الخصائص والعناصر المادية والمعنوية المكونة لوجود شيء ما والتي تميزه عن الأشياء الأخرى بصورة عامة على الرغم من وجود عناصر وخصائص متشابهة". (٤) والخصائص والعناصر التي تُحدد هوية شيء ما تكون على شكلين: خصائص وعناصر مشتركة مع هويات أخرى، وخصائص وعناصر متفردة. وبإجراء تطبيق لهذا التعريف على الفرد تكون الهوية هي "كل ما يُحدد وجود الإنسان وكيونته من العناصر والخصائص المادية والمعنوية"، وبتطبيق هذا التعريف على الجماعة تكون الهوية "هي كل ما يُحدد وجود الجماعة البشرية وكيونتها من العناصر والخصائص المادية والمعنوية التي تميزها بصورة عامة عن الجماعات الأخرى". ووجود

(١) الهوية والانتماء، ٢٥.

(٢) ما معنى (الهوية).. وما هو سوء الفهم السائد حولها؟، سليم مطر،

<http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=620942&r=0>

(٣) "إشكالية الهوية في العراق، رؤية في التحديات ومستقبل بناء هوية وطنية عراقية بعد العام ٢٠٠٣،

أ.م. د. عبيد سهام مهدي، أ.م. د. عمارحميد ياسين، المجلة السياسية والدولية، تصدرها كلية العلوم

السياسية، الجامعة المستنصرية، العدد ٢٨-٢٩، ٢٠١٥، ٢٣٥-٢٣٦.

(٤) م. ن ٢٣٦.

كيان متميز ومتفرد لن يكون كافياً لتحديد هوية جماعة ما لم يصاحب ذلك وعي جماعي بالعناصر والخصائص المكونة لهذه الهوية مع إدراك الجماعة لها، وعناصر الهوية الفردية كانت أم جماعية تتشكل في ظروف تاريخية مع توفر العوامل الخارجية والداخلية الذاتية والموضوعية أي البيئة الداخلية والبيئة الخارجية المحيطة بالجماعة" ولاسيما في المجالات السياسية والاقتصادية والثقافية. وتستبعد الهوية كل الصفات والخصائص التي لا تشعر بحقيقة الانتماء إليها، ويبرز في هذه الحالة دور الأفكار والمعتقدات في تحديد خصائص وعناصر تشكل نقطة للاعتزاز والفخر. فالصورة التي تشكلها الجماعة لنفسها هي التي تبني بها على أساسها هويتها، و يحتاج هذا إلى قناعة الآخرين بهذه الصورة، وهنا يبرز دور الآخر في مسألة الهوية. وفي كل أنواع الهويات الجماعية تتعلق الهوية بالشعور بالانتماء المشترك بين أعضاء المجتمع بشيء يُعدّ عاملاً مشتركاً بينهم. سواءً أكان هذا المشترك وطناً "إقليمياً جغرافياً"، أم إرثاً ثقافياً، أم دولة "كياناً سياسياً- الهوية الوطنية".

وللهوية تعريفٌ يتعلق بالمجال الأدبي حيث الهوية "سماتٌ مميزةٌ للكاتب أو للفنان تبرز في نتاجه، وتشيع فيه لوناً معيناً هو في واقعه محصلٌ للمران الطويل، وللموهبة المثقفة، وقد تكون الهوية أيضاً مجموع الخصائص العينية المميزة للأثر الفني أو لمجموعة من الآثار". (١)

والبحث عن هوية النص الشعري يجري من خلال مكوناته التي تعدّ اللغة عمادها الأساس، لكن التركيز فيها سيكون على مستوى الرؤيا كونها "تتضمن وتدلّ على المنحى الشخصي في استخدام اللغة، المنحى المتعلق بفردٍ شاعرٍ أو تيارٍ يتحرك في سياقه عددٌ من الشعراء". (٢)

(١) "المعجم الأدبي، جيبور عبد النور، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط ٢، ١٩٨٤، ٢٨٧.

(٢) "الهوية كنص ممكن، محمد الأسعد، مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد ١٧ كانون الأول ١٩٨١،

كانون الثاني ١٩٨٢، ٨٢.

ويشارك في تشكيل النص مجموعة عوامل ومؤثرات كالبينة الاجتماعية والسياق الثقافي والبينة السياسية "والتجربة الشعرية فإنّ البحث في هويّتها يتطلب البحث في تلك المؤثرات ومدى فاعليتها في بنية النص".<sup>(١)</sup>

### الهوية الأندلسية:

عانى الأندلسيون من تجاهل المشرقيين لهم ، وهذا الأمر أثار فيهم مشاعر مضادة فوجدنا عندهم رد فعل مناويء أدى بهم إلى تعزيز روح الانتماء إلى الأندلس. فحين زار ابن حوقل الأندلس في سنة ٣٣٧هـ قدّم عنها صورة سلبية ، وتهجم على الأندلسيين وعلى نظامهم الحربي والإداري قائلاً : "ومن أعجب أحوال هذه الجزيرة بقاؤها على من هي في يده مع صغر أحلام أهلها وضعة نفوسهم ونقص عقولهم، وبعدهم عن البأس والشجاعة والفروسية والبسالة ولقاء الرجال ومراس الأنجاد والأبطال"<sup>(٢)</sup>. ومن الواضح أنّ كلامه فيه تحيز كبير ومجانبة صريحة للواقع.

وقد تنبه أهل الأندلس إلى خطورة كلام ابن حوقل، ولا سيّما اتهامه إياهم بنقص العقول، وصغر الأحلام، وضعة النفوس، والبعّد عن الشجاعة والفروسية، فاندبروا للرد على بعض ما جاء في كلامه، وتفنيد آرائه المتعصبة على أهل الأندلس .

و كتب الأندلسيون في تبيان فضائل الأندلس لتعزيز لهويّتها ولتمييزها، فالمقرّي(ت) ١٠٤١هـ) تحدث عن فضائل الأندلس مُعدداً أقوال العلماء والأدباء الذين ألفوا في فضلها، وينتقي نثقا من أقوالهم ويوردها على سبيل الاعتزاز والفخر وتثبيت عناصر الهوية الأندلسية يقول في مقدمة الباب السابع من كتابه( في بُذِ ما من الله تعالى به على أهل الأندلس من توقد الأذهان، وبذلهم في اكتساب المعارف والمعالي ما عزّ أو هان، وحوزهم في ميدان البراعة من قصب السبق خصل الرهان، وجملة من أجوبتهم الدالة على لودعيتهم، وأوصافهم المؤذنة بالمعيتهم)<sup>(٣)</sup> وكأنه في هذه المقدمة يرّد على تهمة

(١) ينظر: جدل الأنا والآخر في الشعر الجاهلي ، علي مصطفى عشا ، المجلة العربية للعلوم

الانسانية، العدد٧٦، خريف عام ٢٠١٠، ٩٦.

(٢) المسالك والممالك ، أبي القاسم ابن حوقل، مطبعة بريل، ليدن، ١٨٧٣م، ٢١٩

(٣) "فتح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، أحمد بن محمد المرّي التلمساني، تحقيق الدكتور إحسان

عباس ، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٣٨٨هـ، ١٩٦٨م، ١/ ١١٤".

ابن حوقل. ولا يُخفي ابن بسام الشنتريني (ت ٥٤٢هـ) غضبته لتجاهل المشرقيين للأندلسيين قائلاً: "فغاطني منهم ذلك، وأنفت مما هنالك، وأخذت نفسي بجمع ما وجدت من حسنات دهري، وتتبع محاسن أهل بلدي وعصري، غيراً لهذا الأفق الغريب أن تعود بدور أهلة، وتُصبح بحاره ثماداً مُضمحلة، مع كثرة أدبائه، ووفور علمائه، وقديماً ضيعوا العلم وأهله" (١) وكتب ابن حزم الأندلسي (ت ٤٥٦هـ) رسالةً خاصةً في فضائل الأندلس ذكر فيها بعض فضائل علماء الأندلس رداً على رسالةِ أرسلها إليه ابن الريبب التميمي القيرواني إليه التي ذكر فيها تفصير أهل الأندلس في تخليد أخبار علمائهم ومآثرهم، فضائلهم وسير ملوكهم (٢) وكتب الشقندي (ت ٦٢٩هـ) رسالةً في فضائل الأندلس أوردتها المقرئ في نوح الطيب "أما بعد فإنه حرك مني ساكنا وملاً مني فارغاً فخرجت عن سجليتي في الإغضاء مكرها إلى الحمية والإباء مُنازع في فضل الأندلس أراذ أن يخرق الاجماع ويأتي بما لم تقبله النواظر والأسماع إذ من رأى ومن سمع لا يجوز عنده ذلك ولا يضل من تاه في تلك المسالك رام أن يفضل برّ العودة على برّ الأندلس فرام أن يفضل على اليمين اليسار ويقول الليل أضوأ من النهار فيا عجا كيف قابل العوالي بالزجاج وصادم الصفاة بالزجاج فيا من نفخ في غير ضررم ورام صيد البزاة بالرخم كيف تتكثر بما جعله الله قليلاً وتتعزز بما حكم الله أن يكون ذليلاً" (٣)

و بالرغم من الشعور المتجذر لدى عموم المسلمين في مشارقهم ومغاربهم بوحدة الانتماء إلى كيان واحد يضم خليطاً منوعاً من الأقوام المنتشرة في أقاليم مختلفة بيئياً ومذهبياً، فقد تبلور شعور بالتغاير والتمايز نتيجة التنوع اللغوي والمذهبي واختلاف عادات الحياة اليومية ، كان الإسلام بقوته الذاتية التي حاولت عبور الإثنيات الطائفية وكان الشعور القوي بالانتماء للإسلام صمام الأمن القومي لهذا البنيان المتنوع، فالإسلام لم يحاول قمع

(١) " الذخيرة في محاسن الجزيرة، ابي الحسن علي بن بسام الشنتريني، تحقيق الدكتور إحسان عباس،

دار الغرب الإسلامي، ط١، ٢٠٠٠م، ١/ ٢٠ ."

(٢) "رسائل ابن حزم الأندلسي ، تحقيق الدكتور إحسان عباس، المجلد الثاني، رسالة في فضائل

الأندلس ورجالها ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط٢ ، ١٩٨٧ ."

(٣) نوح الطيب ، ٤ / ٢٧

التنوع بل حاول احتواءه وإذابته فكان عاملاً من عوامل قوته وانتشاره وقدرته على البقاء ومواجهة التحديات.

تشكّلت هُويّة الأندلس عبر مسيرة حافلة بالتحديات الحضارية، وكانت بدايةً هذا التشكل حين عبر الأمير الأموي (عبد الرحمن الداخل) هاربا من جيوش العباسيين ومؤسساً لإمارة ثم صارت فيما بعد دولةً مستقلةً بذاتها تدير شؤونها بنفسها.

إمتلأت قصائد الأندلسيين بكثير من مزايا القصيدة المشرقية لاسيما في مراحلها الأولى ، فالشاعر الأندلسي تأثر كثيراً بالقصيدة المشرقية ولم يكن مُنقطعاً عن أجوائها فظهر واضحاً أثر البداوة في القصيدة الأندلسية كالابتداء بالبكاء على الأطلال، وذكر الرحلة ومتاعبها، وتأثرت القصيدة الأندلسية بهذه الأشكال المشرقية وحاولت إعادة صياغتها وتشكيلها برؤيا خاصة تميزها. وهذا التأثير يُعدُّ شكلاً من أشكال الشعور بالانتماء إلى هُويّة واحدة جامعة، و الشعُر من أكثر الفنون ارتباطاً بالذات وتعبيراً عنها، والشاعر صوتُ مجتمعه، والشاعر الأندلسي ليس حالةً استثنائية، فهذا أمرٌ مرتبطٌ بالواقع الاجتماعي والسياسي والثقافي السائد.

والمتتبع لشعر ابن الخطيب يجدُ أنّ كثيراً من شعره كان مرآةً لدوره السياسي النشط، ونجد أنّ "أنا" الشاعر تنمهي بـ"نحن" التي تمثل انتماؤه القومي والديني، وهذا التماهي كان ضرورياً للحفاظ على هُويّة الأندلس التي كانت مهددةً بحملاتٍ صليبيةٍ عنيفةٍ تُهدد وجودها. ومن مظاهر الشعور بالانتماء إلى هُويّة مركزية هذا الشعور بالألم والحسرة التي تظهر في قصائد ابن الخطيب حين كان منفياً، وهذا الشعور تكوّن نتيجةً حسّ كامنٍ في دخيلة الشاعر بانتماءٍ واحدٍ يجمعه مع من ظلمه .

إنّ السعي لترسيخ الهُويّة في الفضاء الأندلسي كان تعبيراً عن حالةٍ وعيٍ وقلقٍ، فهناك العدو المتربص الذي عاد بقوةٍ ليسيّطر على المدن الأندلسية الواحدة تلو الأخرى ، وهناك الهجرة الداخلية والخارجية، والنفي، والصراعات والتحولت السياسية والاجتماعية المتلاحقة، كلّ هذه الظواهر أثارت الخوف والقلق والتوتر. وبدأت قضية الهُويّة بالظهور بقوةٍ في وسط هذه الاضطرابات العميقة و من الطبيعي أن تنشأ الحاجة لإعادة التعرف على الذات والبحث عن الهُويّة في بيئة لم تعد ودودةً أحياناً. ووسط هذا الوضع المتوتر بدأ الأندلسي يسأل عن هُويّته، و برد الفعل، والتمايز، ومعارضة ما ليس هو، والتوجس

من الآخر، و نشأت بالتالي "هوية" تم تركيبها، على نحوٍ أو آخر، ضد هويةٍ أخرى ، ثم إسقاطها على "الآخر" أو "المجتمع". والهويات التي تتحدد على هذا النحو، الهويات القائمة على رد الفعل، قد تُنتج هوياتٍ تصادميةٍ وإقصائيةٍ.

كان الشعر الأندلسي عقب الفتح الإسلامي غير واضح الملامح مجهول الهوية لانصراف المسلمين إلى الحروب لتوطيد أركان الدولة الجديدة، لذا كان الشعر الأندلسي في الحقب الأولى عاليةً على شعر المشاركة، وهذا الشعر وإضرابه يجري في صياغته على أسلوبٍ وتقاليد مدرسة المشرق المحافظة ، إذ يُعنى بجزالة اللفظ وفخامة العبارة وسطحية الفكرة وبداءة الصور التي لم تتأثر بالحضارة الجديدة .

### الشكوى من ضياع الهوية الأندلسية:

عانى الأندلسيون من نظرة المشاركة الدونية لهم (كما عانى الأندلسيون أنفسهم من احتقار كل شيء أمام كل مشرقٍ، حتى نتاجهم، مما أدى إلى وجود ضعف نفسي تمكن منهم عندما يقفون أمام المشاركة ) (١) وقد أعرب كثير من أدباء الأندلس عن تضجرهم وشكواهم يقول ابن حزم الأندلسي (٤٥٦هـ) :

أنا الشمس في جو العلوم منيرةٌ ولكن عيبي أن مطلعِي الغربُ  
ولو أنني من جانب الشرق طالعٌ لجدُّ على ما ضاع من ذكري النهبُ  
ولي نحو أكناف العراق صبايةٌ ولا غرو أن يستوحش الكلفُ الصبُّ (٢)

ويبدو أنَّ معاناة ابن حزم وشكواه من قلة الاهتمام كانت ظاهرة عبّر عنها الأندلسيون بكثرة فقد شكَا ابن بسام الشنتريني (ت ٥٤٢هـ) من العناية الكبيرة التي يوليها الأندلسيون لأدب المشاركة فقال (ألا إنَّ أهلَ هذا الأفق أبوا إلا متابعة أهل الشرق ، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة رجوع الحديث إلى قتادة، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب، أو طنَّ بأقصى الشام والعراق ذباب لجثوا على هذا صنما وتلو ذلك كتابا محكما) (٣)

(١) الشكوى من العلة في أدب الأندلسيين ، الدكتور عبد الله بن علي بن ثقفان، مكتبة التوبة، الرياض،

المملكة العربية السعودية ، ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م، ٦٦

(٢) ديوان ابن حزم الظاهري ، جمع وتحقيق ودراسة، دز صبحي رشاد عبد الكريم، دار الصحابة للتراث

بطنطا، ١٤١٠هـ، ١٩٩٠م. ٧٧

(٣) الذخيرة في محاسن الجزيرة، ق ١، ١٢، ١٠١

وقد أراد بعض أدباء الأندلس الذين أزعجهم القول بأنهم يترسمون خطى المشاركة في نتاجهم الأدبي وينسجون على منوالهم ويلجؤون في اتباعهم التخلص من هذه التهمة، فحاولوا التمييز في كتاباتهم، ومن هؤلاء ابن شهيد الأندلسي (ت ٤٢٦هـ) الذي أورد إشارات في رسالته "التوابع والزوابع" إلى هذه القضية فبالرغم من الشبه الواضح بين رسالته ورسالة الغفران لأبي العلاء إلا أن ابن شهيد جعل مسرح قصته الجن بأرضها الغربية وأجوائها العجيبة بينما كان مسرح رسالة الغفران الدار الآخرة بفرديوسها وجحيمها، والأمر الثاني أن ابن شهيد وجّه اهتمامه إلى القضايا الأدبية والبيانية بينما جعل المعري اهتمامه الأكبر بالمشكلات الفلسفية والمعضلات الدينية، ويعيداً عن الخلاف الذي لم يُحسم حول أسبقية أحدهما على الآخر ومن تأثر منهما بالآخر، ويرى بعض الباحثين أن نظرة المشاركة إلى الأندلسيين باعتبارهم مقلدين وتابعين هي التي دفعت به إلى تأليف هذه الرسالة "ولعلّ هذه النظرة لأهل الأندلس أثارت ابن شهيد، ودفعت به إلى تأليف الرسالة، وانتقاء الاعلام والفحول من المشاركة، ومعارضتي أدبهم شعراً ونثراً، ولم يكتف ابن شهيد بإجازتهم فحسب، بل جعل بعضهم يعترف له بالتفوق عليهم... وكان ابن شهيد في هذه المشاهد يرفض هيمنة المشرق ويثور على تشامخهم، وينتصر عليهم ويسومهم الخسف والهوان"<sup>(١)</sup>.

وقد بدأت قضية التعبير عن الهوية والتميز تظهر بقوة في شعر لسان الدين بن الخطيب، في زمن عاشه كان مُفعماً بالتحديات الوجودية الخطيرة، يقول في قصيدته التائية التي قالها وهو في السجن مستشعراً فيها دنو أجله :

"بُعْدُنَا وَإِنْ جَاوَزْتَنَا الْبُيُوتُ  
وَجِئْنَا بَوَعْظٍ وَنَحْنُ صُمُوتُ  
وَأَنْفَاسُنَا سَكَتَتْ دَفْعَةً كَجَهْرًا  
ءِ الصَّلَاةِ تَلَاةِ الْقُنُوتِ  
وَكُنَّا عِظَامًا فَصِرْنَا عِظَامًا  
وَكُنَّا نَقُوتُ فَهَا نَحْنُ قُوتُ  
وَكُنَّا شَمُوسَ سَمَاءِ الْعُلَى  
غَرِبْنَ فَنَاحَتْ عَلَيْهَا الْبُيُوتُ  
فَكَمْ جَدَلْتُ ذَا الْحُسَامِ الطَّبِيِّ  
وَذَا الْبَحْتِ كَمْ خَدَلْتُهُ الْبُخُوتُ

(١) النثر الخيالي في الأندلس في القرنين الخامس والسادس الهجريين التشكيل والرؤيا، د . دنيا ملكاوي

، دار آلان ناشرون وموزعون، عمان الأردن، ٢٠١٧، ٢٠

وكم سيقَ للقبرِ في خرقَةٍ      فتى ملئتُ من كسأه النَّحوتِ  
فقلُّ للعدا دَهَبُ ابْنِ الخَطِيبِ      وفاتِ ومَنْ ذا الذي لا يقوتِ  
فمَنْ كانَ يَفْرَحُ مِنْكُمْ لَهُ      فقلُّ يَفْرَحُ اليَوْمَ مِنْ لا يَموتُ" (١)

نلاحظ نبرة الحزن القوية ليس على نفسه فقط بل على الأندلس التي عبّر عنها بضمير الجمع "نا" بعدنا... جئنا... أنفاسنا... كنا... فصرنا... حيث توحدت الأزمه النفسية التي يعيشها الشاعر نتيجة لغربته وحالته المعيشية الصعبة في بلاد المهجر مع الأزمة التي تعيشها الأندلس، وهذا تعميق لمعنى الانتماء الذي يقوم على تحقيق التوازن بين الانتماء إلى الهوية الأندلسية المهددة بالمحو وبين الهوية الشخصية للشاعر، وكثرة حضور الضمير "نا" يعلن بروح الشاعر تمكين هويته الحاضرة / الغائبة ( فهوية أية جماعة اجتماعية تتألف من خزين عام من العادات والتقاليد والمعتقدات والمفاهيم واللغة والأساطير والقوانين وقواعد السلوك) (٢). والحنين الدائم إلى الأندلس كان ميزة واضحة في شعره يقول في موشحة له:

يا لَيْتَ شعري هل لها من إيابٍ      يوماً وعند الله علمُ الغُيوبِ  
ساعاتُ أنسٍ تحت ظلِّ الشَّبابِ      خُضِرَ الحواشي طيباتِ الهُبوبِ  
أيامٌ لا نرهبُ وقَع النَّوى      فنحنُ من سَطوتِها في أمانِ  
حتى إذا لدَّتْ كُؤوسُ الهوى      وقُلْتُ : قد نامتْ عيونُ الزَّمانِ  
جاءتْ أمورٌ لم تكنْ في حسابِ      عندي وألوانُ اللَّيالي ضروبِ  
فمَنْ لي اليومَ بردَّ الجوابِ      كلني لتسألِ الصِّبا والجَنوبِ  
لا كَلَفَ اللهُ النَّفوسَ الرَّقاقِ      من مَضضِ الأشواقِ ما لا تُطيقِ  
طَعْمُ النَّوى يا صاحٍ مرُّ المِ      ذاقُ ونازُ الفِكْرِ عذابُ الحريقِ  
قدْ بَلَغَتْ بالهَجْرِ رُوحِي التَّراقُ      فهلُ إلى نَيْلِ الرِّضى من طَريقِ

(١) "ديوان لسان الدين بن الخطيب السلمي، صنعه وحققه، د. محمد مفتاح، دار الثقافة، الدار

البيضاء، المغرب، ط١، ١٩٨٩، ١/ ١٨٥.

(٢) تشريح النص، مارتين أسلن، ترجمة: يوسف عبد المسيح ثروة، دار الحرية للطباعة والنشر، بغداد،

١٩٧٨، ٢٦ . ٢



يا شَدَّ ما تحمِلُ منهُ القلوبُ      والله ما الهجرانُ إلا عذابُ  
والليلُ ما للنجم فيه غروبٌ (١)

وبالرغم من أن الحنين ظاهرة إنسانية طبيعية حاضرة في الشعر العربي في عصوره كافة إلا أن صورته بدت أكثر وضوحاً وعمقا في شعر لسان الدين إشتعاراً منه لصعوبة الظرف السياسي والاجتماعي الذي تعيشه الأندلس.

والتداخل بين مفاهيم الهوية والذات و"الأنا" يبدو واضحاً في النص الذي ينطلق من الصراع بين الأنا والآخر لدى الشاعر الذي يعيش ثقافة مباينة نوعاً ما ، ويعيش تناقض التعايش مع معطيات عالم جديد، وحالة متواصلة من الحنين إلى بلده الأصل.

والحالة النفسية التي يعيشها تعبر في جانب من جوانبها عن حالة عجز عن التكيف مع الواقع الجديد، فهي ليست مجرد حنين يرتبط برغبة نفسية في العودة إلى الجذور، حيث الأهل والعادات والتقاليد، والموطن الجغرافي، وهذه الإشكالية تكشف لنا جانباً من جوانب الإحساس المفقود بالهوية أو تشتتها التي تشكلت من تعلق الشاعر بثقافته وجذوره الأصلية. وقضايا الوعي والذاكرة، وعندما يتعلق الأمر بالماضي يصبح الوعي ذاكرة بكل بساطة، وهوية الشخص يحددها مستوى الشعور والتوتر الذي يعيشه الفرد تجاه العوامل المتداخلة والمتشاكلية التي تولد عناصر الهوية، وإذا رجعنا إلى مفهوم الهوية في جانبه الفلسفي وجدناه يشير إلى كل ما هو متماثل ومتطابق في ذاته، والذي يحدد هوية شخص وتفرد هو حالته النفسية وذاكرته، ويظهر هذا في الأسلوب الخاص والمميز وسلوكيات الشخص وأفعاله، وعلاقته بالآخر.

والإنسان بطبعه يعيش تقلبات نفسية وشعورية بشكل مستمر، مع تراكم ذكرياته، وهذه الذكريات من الآليات الفعالة التي تمكنه من الحفاظ على هويته. والسمة العامة لكيان الشخصية هي قدرتها على المحافظة على هويتها في سلسلة التراكبات التي تحدثها التغيرات الحياتية. والهوية ( بالرغم من انها موضوع ميتافيزيقي فإنها مشكلة نفسية وتجربة شعورية، فالإنسان قد يتطابق مع نفسه أو ينحرف عنها في غيرها) (٢) وكل حديث عن

(١) الديوان ، ٢٠ / ٧٩٤

(٢) الهوية ، حسن حنفي ، ١ .

الهوية لا يستقيم بدون استحضار الذاكرة سواء أكانت فردية أم جماعية، فالذاكرة والهوية مفهومان مترابطان، يُمسك أحدهما برقبة الآخر. وكان ابن الخطيب يرى أنّ الأندلس بلد لا تعادلها بلاد أخرى في جمالها وعظمتها يقول في موشحته المشهورة:

يا زمانَ الوصلِ بالأندلسِ	"جادك الغيثُ إذا الغيثُ همي
في الكرى أو خلسةً المُختلسِ	لم يكنْ وصلكْ إلا حُلماً
ننقلُ الخطوَ على ماترسُمُ	إذ يقودُ الدهرُ أشناتِ المنى
مثلما يدعو الحجيجِ الموسمُ	زمرًا بين فرادى وثنا
فتغور الزهر فيه تبسُمُ	والحيا قد جلل الروض سنا
كيف يروي مالِك عن أنسِ	وروى النعمانُ عن ماءِ السما
يزدهي منه بأبهى ملبسِ" (١)	فكسأه الحُسْنُ ثوباً مُعلماً

وفي قصيدة له يتوجه ابن الخطيب إلى بني قومه من الأندلسيين:

وساعدها السَّعدانُ وسطَ المسارحِ	"أقولُ لقومي عندما حطَّ كورها
بمعرضِ سوءٍ فهي ناقَةٌ صالحِ	ذروها وأرضُ الله لا تعرضوا لها
بطوحِ القوافي وانبعاثِ القرائحِ؟	إذا ما أردنا القولَ فيكْ فمن لنا
وموردِ ظمآنٍ وكعبةٍ مادحِ	بقيتْ مُنى نفسٍ ونجعةٍ رائدِ
أرحتِ السرى من كلِّ غادٍ ورائحِ" (٢)	ولا زلتَ تلقى السهلَ والرحبَ حيثما

وهنا يُنشيء الشاعر علاقةً تناصيةً مع قصةٍ وردت في القرآن أكثر من مرة، هي قصة النبي صالح الذي بُعث إلى ثمود، وناقته التي هي معجزته "وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ" (٣) وكان الله قد رزق قوم صالح خيراً وفيراً لكنهم جحدوا ربهم وعصوه، فبعث الله إليهم نبياً من بينهم لكنهم

(١) الديوان، ٢/٧٩٢.

(٢) الديوان ١/٢٣٢.

(٣) هود، ٦٤.

كذبوه وطالبوه أن يأتي بأية ليصدقوه فأتاهم بمعجزة الناقة التي أمرهم ألا يؤذونها لكنهم تمادوا في غيهم وعقروا الناقة وعاقبهم الله بالصاعقة ونجى الله نبيه وأتباعه المؤمنين به. والتناص يعتمد آليات تشكل حواراً بين النصوص، و يتحقق القاريء الذي يسبر غور العملية الإبداعية من هذا الحوار كاشفاً جماليته من خلال تمتعه بحس وذوق أدبيين، والنص الشعري وليد سلسلة من النصوص السابقة عليه، وهو ذلك النسيج الذي تنتشر فيه أصداءً وشذرات نصية وغير نصية تُشكّل في مجموعها صورةً جديدةً تستمد طاقتها الإيحائية من المحتوى الأصلي.

واعتمد التناص مع القرآن في النص آلية الاجترار حين طغى بلفظه ومعناه على ذاكرة الشاعر وتشكّل في إبداعه، وهذه الأبيات محاولة لتدعيم الإحساس بالهوية العربية الإسلامية، فالنبي صالح عربي، شكّلت معاناته مع قومه نموذجاً لما يمكن أن يحصل في ارتداد المجتمع.

ولا يشكّل الرمز الديني غموضاً قوياً على الفهم، ولا يُظهر فجوةً بين النص والمتلقي، ولا ينبئ بوجود صراعٍ بينهما أو سوء فهم، والناقة رمزٌ لجأ إليه الشعراء العرب كثيراً ليشير إلى ديمومة الحركة واستمرارية الحياة في وسط بيئة قاحلة وجافة. فالناقة عند العربي هي المُنقذة له، القادرة على تحمل الصعاب و تذليل العقبات ولها الفضل الأعظم في انتشال العربي من جوعه وفاقته. وناقة صالح من أشهر النوق وعُرفت بـ"ناقة الله"، فناقة النبي صالح أو ناقة الله السائبة حين عقرها قومه، فكانت سبباً لدمار قبائل ثمود البائدة، وحضارتا عاد وثمود، أرسل الله عليهم الرعاف أو السيول عقاباً. و التعدي على ناقة النبي صالح كان ضرباً من انتهاك المحرم أوالمقدس واستطاع ابن الخطيب ربط هذه القصة بتناصٍ ذكي مع مأساة الأندلس حيث الصراع والاقتيال الداخلي وتجاهل العدو الخارجي المتريص بها.

و حالات الإحباط التي عاناها الشاعر في موطنه لم تتسه همّة الأكبر الذي بقي يلوح في أفق حياته، إنه هم المصير . يقول في لاميته الشهيرة:

"سلوا عن فؤادي بعدكم كيف حاله وقد قوّضت عند الصباح رجاله  
ولا تحسبوا أنني سلوت على النوى فسلوان قلبي في هواكم محاله  
وما حال من شطت بغرب دياره وفي الشرق أهله وثم حلاله

سقى الله من غرناطة متبوئا  
 عسى جبل الفتح الذي بجانبه  
 تُسائل أنفاس النسيم إذا سرى  
 وربعاً بحمراء المدينة أهلا  
 وغابا به للملك أشبال ضيغم  
 لقد هاجني شوق إليها مبرح  
 فكم لي على الوادي بها من عشية  
 يقُلُّ لها ذكر الفتى ومقاله<sup>(١)</sup>

يحتلُّ المكان في هذا النص حيزاً كبيراً من اهتمام الشاعر، فقد تحول عنده إلى ذاكرة . والشاعر الأندلسي أشد إحساساً بالمكان بسبب ما يستشعره من مظاهر التهديد التي تحيط بالأندلس المهتدة بالسقوط، ولأنَّ الشاعر نسج مع المكان علاقةً ألفةً وحميمية . والعلاقة مع المكان تنطوي على عوامل عدَّة تجعل من معايشة الشاعر لها حالةً تُجاوز للوعي لتتوغل في اللاوعي، فالشاعر لا يحتاج فقط إلى مساحةٍ مكانيةٍ يعيش فيها، بل يرغب بمكانٍ يُعمِّق فيه جذوره ويؤصل فيه هويته. و يأخذ البحث عن الهوية شكل التماهي مع المكان الذي يحيله إلى مرآة يرى ذاته من خلالها، وهنا يتوَّشجُّ الإحساس بالمكان الفردي والمكان الجماعي لدرجةٍ يصعب معها التفريق بينهما أحياناً. إضافةً إلى أنَّ المكان أصبح يُنظر إليه على أنه عنصر شكلي وتشكيلي من عناصر العمل الفني. يمكن القول أيضاً إنَّ المكان يرتبط في الشعر العربي بالفعل من جهة، والموقف من جهة ثانية، بمعنى أنه دالٌّ على ما ينجز داخله من أفعالٍ إنسانية، ثم إنه مرآة كاشفةٌ لما يعترى الشاعر داخله من أحاسيس وانفعالات. وتساهم اللغة باعتبارها القناة المحولة للأشياء إلى أنساق في كشف هذا الإدراك للمكان والإحساس به . والهوية المكانية اكتسبت مصداقيتها ومقدرتها على البقاء بقدرتها على التطور والتفاعل مع المتغيرات الاجتماعية والسياسية والثقافية وبوعيا لها هذه الخصوصية المرنة والانفتاح والاستجابة.

( ١ ) الديوان ٤٩٣/٢ .

ونجد الشاعر قد نَوَّع في الصور التي حاول من خلالها رسم صورة للمكان بتجلياته النفسية، ومنها أنسنة المكان وذلك يعود إلى ( أنَّ إحساس الشاعر الأندلسي بالمكان الذي يعيش فيه أو يعاصر أحداثه يملئ عليه أن يخرج به بأبهى صورة وأعلى منظر، إذا كان مكانا أليفا محمودا، والعكس يحدث عندما يكون المكان معاديا مذموماً ، فلا يألو هذا الشاعر جهداً في وصفه بأبشع الصور وأقبح المعاني) <sup>(١)</sup> لذا نجد الشاعر يخاطب جبل الفتح ويحاوره كأنه كائن حي. ويدعو بالسقيا لغرناطة كعادة العرب بالدعاء بالسقيا لأرض أحبائهم.

### فقدان الهوية في شعر لسان الدين بن الخطيب:

قد تتحول الهوية إلى عنوان من عناوين الأزمة في مجتمع مأزوم وفي ظروف زمنية محددة. والمجتمعات المأزومة تعاني خلا " تركيبياً " في بنائها يقودها في بعض الأحيان إلى التفكك والتشردم تحت عناوين وهويات فرعية (ثانوية) لا تقوى على الصمود والاستمرار .

وحيث يكون من الصعب تعريف الهوية إيجاباً يلجؤ الباحث إلى تعريفها سلباً أي "فقدان الهوية" أو ما يسمى بالاعتراب ويعني "أن تخرج الهوية خارج الوجود. تتخرج وتصبح بديلاً عنه يرى فيها الإنسان وجوده، وينسى وجوده الأصلي. وقد تحدثت الفلاسفة خاصة أتباع الهيجليين منهم عن الاغتراب أكثر مما تحدثت الفلاسفة عن الهوية" <sup>(٢)</sup>

والشعور بالهوية يقتضي معرفة الذات وتقديرها، وبنائها، وتدل الذات على مجموعة خصائص طبيعية نفسية، مكتسبة تفرضها الظروف المحيطة بالفرد، وهذه الخصائص قد تجعل منه فرداً فاعلاً ومتفاعلاً، أو تطمس هويته وتلغي وجوده، وهذا ما حصل مع لسان الدين بن الخطيب الذي تعرض للنفي والاستلاب . والعلاقة بين الذات والهوية علاقة جدلية، تتحقق كل منهما بوجود الأخرى"وقد يؤدي فقدان الهوية أي الاغتراب إلى

(٢٢) المكان في الشعر الأندلسي من عصر المرابطين حتى نهاية الحكم العربي ، د. محمد ساير

الطربولي ، دار الرضوان للنشر والتوزيع، مؤسسة الصادق الثقافية، ١٤٣٣هـ ، ٢٠١٢م ، ٤٧٦ .

(٢) الهوية ، حسن حنفي، ١٥ .

ردّي فعل متضادين، مثل العزلة والانطواء أو الانتشار والضعف" (١) يقول شاعرنا وهو يقف عند سبئة متحدثاً عما أصابها من نكبات :

يا سبئة العزفين إلى درجوا	وقد تَضَوَّعَ من أخبارهم أَرَجُ
ما بال ربعك قد حطَّ العفاءُ به	رحلَ المقيمُ، وأودى حُسْنُكَ البهجُ
أين المدارسُ أم أين الفهارسُ أم	أين المدارسُ لا تتبو بها الحججُ
أين الأساطيلُ تُرجى من سوابحها	دُهماً مُعْتَقَةً بيدائِها اللججُ
أين الصدورُ إذا ما المعضلاتُ دَجَت	هَدَّتْ إلى القصدِ من آرائهم حُججُ
يصرفون من الخطى عاسلةً	سُمرًا تسيلُ على أعطافها المُهَجُ
تخرّموا لم يكن في الأرضِ منحدرٌ	يقي المنون ولا في الجو مُنْعَرَجُ
قالت تخونني صرفُ الزمانِ فلم	يدخل لي الأتسُ قلباً من لدن خرجوا
وكلُّ ذي جدّةٍ يبلى إذا لعبتْ	به الليالي وسارتْ دونه الحججُ
لعلَّ فارس تحييني مكارمه	إنَّ الشدائد يأتِي إثرها الفرجُ" (٢)

إنَّ إحساس الشاعر بفقدان الأمان واختلال التوازن في المجتمع وعجزه عن التغيير يقوده إلى حالة من اليأس، وجاء تكرار أسماء الاستفهام ليزيد من شعور المتلقي بحالة الحيرة التي يعيشها الشاعر. وأسلوب الاستفهام من الأساليب اللغوية والبلاغية التي تضفي على التراكيب دقة في الدلالة وانفتاحاً في المعنى إلى دلالة أخرى تعتمل في النفس وصولاً إلى إثارة فكر القارئ، وهو وسيلة يشرك الشاعر فيها المتلقي في التعامل مع الدلالات الكامنة وراء اختياره محاولة منه لاستدرار العواطف وإثارة مكان الحزن. وتكرار الاستفهام بـ "أين" جاء في سياق التساؤل الذي يعبر عن حالة القلق وإشارة من الشاعر إلى انتفاء الحاجة إلى معرفة مصير هذه الأماكن حقيقة، ويبدو أنَّ الاستفهام بهذا الاسم لم يأت للاستفهام عن مصير "سبئة" فقط بل جاء نتيجة لانفجار كوامن الحزن تجاه الأندلس التي تقع "سبئة" قبالتها مباشرة قرب جبل طارق، فهي المكان الأقرب إلى الأندلس وكانت

(١) الهوية حسن حنفي، ٢٥

(٢) الديوان، ٢٠٧/١، ٢٠٠٧

تحكمها أسرة من أصول أندلسية تعرف بـ "بني العزفي"<sup>(١)</sup> ، والإصرار على تكرار اسم الاستفهام في هذا المقطع يجعل التكرار يحدث وقعا انفعاليا ووجدانيا في نسيج اللغة ليترجم عمق الشعور الإنساني المرير، وصار البكاء على الماضي هاجسا يؤرق الإنسان ، و يقوم التكرار هنا بوظيفة تأثيرية حين يلقي في ضمير القارئ وأفق هزة ومفاجأة، وصار حاملا للمعنى العام للخطاب الشعري، ومعبراً عن مجمل الإحساس الوجداني الواصف لذات مؤرقة ومتوجعة " وهذا التكرار لاسم الاستفهام " أين " يذكرنا بتكراره في نونية ابي البقاء الرندي (ت ٦٨٤هـ) التي رثى فيها الأندلس :

"أين الملوكُ ذوو التيجان من يمنٍ وأين منهم أكاليُّ وتيجانُ  
وأين ما شادهُ شدَّادُ في إرمٍ وأين ما ساسه في الفرس ساسانُ  
وأين ما حازه قارون من ذهبٍ وأين عادٌ وشدادٌ وقحطانُ"<sup>(٢)</sup>

فتكرار الاستفهام أريد به معانٍ مجازية ليس لها واقع في عالمنا المحسوس، وأسلوب الاستفهام يكشف عن نزوع الإنسان نحو التعرف على ذاته ، والخروج من ضباب الحيرة والارتباك التي يعانها في حياته ، وهو بمثابة المثير الذي يحفز العقل بمداولة النظر، والتفكير بماهية الأشياء والوقوف عليها ، وهومن الأساليب التي اقترن ميلادها بميلاد الفلسفة . وإثارة الأسئلة تحدث نوعاً من التفاعل بين الشاعر والمتلقي. ولجأ الشاعر إلى أسلوب الترجي في آخر النص ليكمل مسيرة الشعور بالعجز والاستلاب التي يعانها الشاعر.

ومن الشعر الذي يشير بقوة إلى مشكلة تأزم الهوية ما قاله الشعراء عند وقوفهم على أطلال المدن المنكوبة، من ذلك قصيدة قالها ابن الخطيب عند دخوله مدينة مراكش وأحزنه ما آل إليه أمرها:

"بلدٌ قد غزاهُ صرفُ الليالي وأبأحَ الحریمُ منه مبيحُ  
فالذي خَرَّ من بناء قَتيلٍ والذي خَرَّ منه بعض جريحُ

(١) الديوان ، هامش المحقق، ٢٠٨ / ١

(٢) ديوان أبي البقاء الرندي الاندلسي، تحقيق رفعت برهام حسن، ط١، (د.ت) القاهرة، ٥٧

كم معانٍ غبت بتلك المعاني وجمالاً أخفاه ذاك الضريحُ  
وملوكٌ تعبدوا الدهرَ حتى أصبح الدهر وهو عبد صريحُ  
دوخوا نازحَ البسيطة حتى نال ما شاء ذابل وصفيحُ  
حين سبت لهم من الباس نار ثم هبت لهم من النصر ريحُ  
أثر يندب المؤثر لما طال بعد الدنو منه النزوحُ  
فقلوبُ النجوم تخفق وجدا وعيونُ السحابِ حزنا تفوحُ  
ساكنُ الدار روحها كيف يبقى جسداً بعدما تولى الروحُ" (١)

والشاعر في هذا النص يعيش الأمكنة بحرقه الخراب الذي تعيشه والمدمرة معالمه، فالمكان بدا جريحا، والزمانُ بدا مريراً محملاً بالأوجاع، والحرقه، والأنين، ومن يدقق في بؤرة النص الدلالية يلحظ أنَّ الدلالات المكانية تشكل محرك النص، ومركز الرؤيا فيه، لأنها توحى بدلالات مضمرة، وإيحاءات اغترابية، حين نقل الشاعر دلالات النص المكانية الموحية بالحياة والنمو والتطور، إلى دلالات الدمار والخراب .  
والصور المكثفة التي بنَّها الشاعر في القصيدة تحمل تنوعا دلاليا جعلت الزمن الإبداعي للنص مفتوحاً على مواقف ورؤى ودلالة متنوعة، ووفق هذا التصور، فإنَّ الصورة التي رسمها النص متحركة، موزعة على استرجاع الأزمنة الماضية، ومواقف ممتدة إلى الواقع المعاصر بأبعاد صورية متنوعة ومتقلبة مفتوحة على كم متنوع من الدلالات.

والمدينة في هذا النص لم تعد فضاءً جغرافيا محضا بل صارت معادلا موضوعيا للتعبير عن أزمة وجودية يعيشها الشاعر المغترب ، ففي النص تظهر القواسم المشتركة بين الشاعر والمدينة ، فقد طغت على النص أجواء الكآبة والحزن والتشكي من الواقع وكل هذا تم عكسه على واقع مراكش ، وهذه المفردات دليل على أنَّ الشاعر مكسور خاطر ،ضعفت همته، وخارت قوته لما آل إليه الوضع .

ومن الواضح أنَّ ابن الخطيب كان يعيش في غربته المكانية مرحلة تسمى اضطراب الهوية، حين شعر أن البيئة التي يعيش فيها بيئة قامعة له ، بيئة استلاب لإرادته وتاريخه

(١) الديوان، ٢٣٦/١



وقدراته الإبداعية. والهوية التي يعاني ابن الخطيب استلابها منه في اغترابه هي الهوية الفردية والهوية الاجتماعية، ، فيمكن أن تجتمع في الشخص الواحد صفات تميزه عن الآخرين، حيث تتجسد عبر انتماءات ومكونات تتعلق بالموروث الثقافي والطبقة الاجتماعية ، فكل فرد له هويته الخاصة ، وله أيضا هويته الاجتماعية .

ويرى الجابري أنّ الانتماء إلى هويّات مختلفة يحركه تداخلٌ بين ثلاثِ دوائر لها مركزٌ واحد، تُشكل كل منها "أنا" مستقلة، تتحدد بمواجهة "آخر" داخل كل دائرة: "قالفرد داخل الجماعة الواحدة، قبيلة كانت أو طائفة أو جماعة مدنية، حزبا أو نقابة.. ، هو عبارة عن هوية متميزة ومستقلة. عبارة عن أنا، لها آخر داخل الجماعة نفسها، أنا تضع نفسها في مركز الدائرة عندما تكون في مواجهة هذا النوع من الآخر". و يفصل الجابري في تحديد هذه الدوائر، فيقرر "أنّ الجماعات داخل الأمة هي كالأفراد داخل الجماعة، لكلّ منها ما يُميزها داخل الهوية المشتركة، ولكلّ منها أنا خاصة بها وآخر من خلاله وعبره تتعرف على نفسها بوصفها ليست إياه"<sup>(١)</sup>.

ومشكلة تداخل الهويات قد تكون حاضرة بقوة إلى حد تغيب الهوية المركزية لأنّ الهوية بنية مُتحوّلة باستمرار متشابكة ذات علاقات تبادلية تنهض على التفاعل مع معطيات الوجود ومكونات المحيط، بحيث لا يُمكن التعامل معها بمعزلٍ عن إدراك مناحي تأثرها بالسياقات التاريخية والمكانية والفردية .

وفي مقطوعة لابن الخطيب يبدو هذا التداخل حاضرا بقوة يقول:

"ولم لا ولي قلبٌ لبعذك خافقٌ

تنازعني الضدان فيك على النوى

فلو أنّ ليلي أبصرتني أقسمتُ

إنّ التغيير ميزة من مميزات المجتمعات البشرية، وهذه المتغيرات تعمل على

تنشيط حراكها فتارة تسمح لها بمواكبة التقدم والتطور وتارةً أخرى تخلق لها تناقضات

(١) ينظر العولمة والهوية الثقافية؛ عشر أطروحات، محمد عابد الجابري: مجلة المستقبل العربي،

بيروت، عدد٢٢٨، ١٩٩٨، ٩٦.

(٢) الديوان، ١/٢٣٧.

وأزمات تتسبب في زعزعة نُظْمها وبنائها الاجتماعي . وكثيراً ما ينجم عن هذه المتغيرات تداعيات تمس هوية المجتمع وتنشأ لديهم أزمات الهوية التي تؤدي إلى اختلال التوازن والاضطرابات والصراعات .

والهوية لم تكن يوماً موضوعاً ثابتاً أو حقيقة واقعة "بل هي إمكانيةً حركيةً تتفاعل مع الحرية، فالهوية قائمة على الحرية لأنها إحساسٌ بالذات، والذاتُ حرّةٌ. والحرية قائمة على الهوية لأنها تعبيرٌ عنها. والحرية تحرر أي أنها إمكانيةً لأن يكون الإنسان حراً" (١) .

ومشكلة ضياع الهوية وتشتتها قد تكون منطلقاً لأزمة وجودية يعيشها الإنسان "وقد يؤدي فقدان الهوية أي الاغتراب إلى ردي فعل متضادين مثل العزلة والانطواء أو الانتشار والعنف" (٢) وقد عبّر ابن الخطيب عن حالة القلق والضياع التي يعيشها في أبياتٍ قالها في ذكرياته:

أَهَاجَتْكَ ذِكْرِي مِنْ خَلِيطٍ وَمَعَهْدٍ      سَمَحَتْ لَهَا بِالذَّمْعِ فِي كُلِّ مَشْهَدٍ  
وَعَادَكَ عَيْدٌ مِنْ تَذَكُّرِ جَبْرَةٍ      نَأْوًا بِالذِّي أَسَارَتْهُ مِنْ تَجَلُّدٍ  
حَنَانِيكَ فِي نَفْسِ شِعَاعٍ وَمُهْجَةٍ      إِذَا لَمْ يَجْنُ مِنْ بَعْدِهِمْ فَكَأَنَّ قَدِ  
فَكَمْ دَوْنَهُمْ مِنْ مَهْمَةٍ وَمَفَارَةٍ      وَأُنْبَاجِ بَحْرِ زَاخِرِ اللَّجِّ مُرِيدِ  
كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلِ يَوْمِكَ عَاشِقٌ      وَلَا وَاقِفٌ بِالرَّيْعِ وَقَفَّةً مُكَمِّدِ  
وَلَا سَأَلَ الْأَطْلَالَ بَعْدَ قَطِينِهَا      فَعَيَّتْ جَوَاباً بَعْدَ طَوْلِ تَرَدُّدِ  
وَمُسْتَنْصِرٍ مِنْ دَمْعِهِ غَيْرُ نَاصِرٍ      وَمُسْتَنْجِدٍ مِنْ ضُرِّهِ غَيْرُ مُنْجِدِ  
سَوَى عَبْرَةٍ تَحْدُو تِقَالَ سَحَابِهَا      إِذَا مَا وَنَتْ رِيحَ الرَّفِيرِ الْمُصْعَدِ  
أَسَى النَّفْسِ لَا يَقْوَى عَلَى رَدِّ فَائِتِ      فَإِنْ شِئْتَ فَلتُنْقَلِ وَإِنْ شِئْتَ فَارْزُدِ  
وَمَا رَجُلُ الدُّنْيَا سَوَى مَتَقِّنٍ      لِنَكَرَانِهَا مَاضٍ مَضَاءِ الْمُهَيِّدِ  
إِذَا أَقْبَلْتَ بِالْخَيْرِ لَمْ تَسْتَقْرَهُ      وَإِنْ كَانَ مُعْتَدّاً بِهِ ضُرٌّ مُعْتَدِي  
فَلَا تَقَنْ مَا يَجْنِي عَلَيْكَ دَهَابُهُ      وَإِنْ كَانَ مُعْتَدّاً بِهِ ضُرٌّ مُعْتَدِي

(١) الهوية ، حسن حنفي، ٢٢ .

(٢) م.ن . ٢٤٠ .

وَحَذُّ مَا بِهِ جَادَ الزَّمَانُ مُسَامِحًا وَلَا تَتْرُكُ يَوْمَ السَّرُورِ إِلَى عَدِّ" (١)

تبتديءُ القصيدةُ باستفهامٍ يُعبر عن قدرة الشاعر على التعبير عما يختلج في نفسه حقق بها تواسلاً مع المتلقي عن طريق إشراكه في البحث عن المدلولات العميقة التي يقبع النص وراءها. وهو يكشف أيضاً عن حالة الحيرة والقلق التي تنتاب الشاعر، وسؤال الهوية ينشأ كدرع يقاوم المؤثرات الخارجية التي من شأنها المساس بثقافات الجماعات والأفراد التي تعاني من مشاكل وجودية تسبب القلق، والقلق كما يقول علماء النفس (قلق من شيء، وقلق على شيء) (٢). وهنا تشكل الهوية عبئاً يعبر عنه الشاعر بحالة الأنين والشكوى والحنين إلى الماضي. فالهوية ترتبط في هذا المستوى بالوعي بالذات، لكنها في أحيان أخرى قد ترتبط باستحضار الآخر باعتباره نقيضاً لأننا (أو للذات)، وهنا تتشكل رؤية سوداوية في النص عبر عنها الشاعر بصور متلاحقة عن ذكريات وأطلال. وقارئ هذا النص يدرك أنه يحتوي فاعلية جمالية في تشكيله وإحساسه الجمالي، لأنه ينطوي على فهم عميق لمثيرات الشعرية ومواطن تحقيق اللذة الجمالية حين تتابعت الصور في أنساق شعرية متوازنة لها القدرة على توليف الصور وتوحي بالعمق والفاعلية والإيحاء.

والتسويقُ خاصيةٌ جماليةٌ من خواص شعرية النص في إثارتها وفعاليتها الشعرية ولاسيماً حين يكون النص الشعري قادراً على مراودة القارئ بالشكل الأسلوبي المثير. وبناء الصور الشعرية وتنسيقها يشكل عنصراً رئيساً من عناصر التشكيل الجمالي في ديوان ابن الخطيب يقول "إنجاردن" ("إنَّ بنية العمل الفني تتطوي على كثرة متنوعة من الكيفيات الجمالية، فكل طبقة من طبقات العمل الفني تتطوي على كيفياتها الجمالية الخاصة بها، بحيث تبدو كما لو كانت مستقلة بذاتها، ومن مجمل هذه الكيفيات الجمالية المتنوعة ينشأ كل جديد، هو ذلك التناغم أو التآلف، أو التنسيق بين عناصره الجمالية، وعلاوة على

(١) الديوان، ٣١١/١ .

(٢) القلق الانساني، مصادره، تياراته، علاج الدين له، دكتور محمد ابراهيم الفيومي، مكتبة الانجلو

الأمريكية، القاهرة، ط٤، ٢٠٠٢، ١١٧

ذلك؛ فإن هذا التناغم بين الكيفيات الجمالية يعمل على تأسيس رابطة جديدة تربط بإحكام وثيق بين طبقات العمل الفني<sup>(١)</sup>.

ومن يطلع على ديوان ابن الخطيب سيرى أنه نجح في تحقيق تنسيق يتشكل من تنسيق الكلمة ثم الجملة والبيت وصولاً إلى المقطع في النص بأكمله . والتناسق الجمالي في النص تأسس بتضافر الكلمات وتواشجها جمالياً وإيقاعياً مع الأنساق الأخرى، لإبراز ملامحها الجمالية، فلا قيمة للكلمة بمعزل عن سياقها الفكري الذي وضعت فيه، و نلاحظ هنا أنّ الكلمات في الأبيات الشعرية السابقة جاءت متواشجة مع سياقها بإيقاع صوتي ودلالي في آن معاً.

ويبدو أسلوب ابن الخطيب في شعره مغايراً لما بدا عليه في أعماله النثرية فقد عُرفت أعماله النثرية (بصعوبة تراكيب جملها ذات الفواصل المتعددة)<sup>(٢)</sup> خلافاً لما نجده في شعره من وضوح وابتعاد عن الغموض والتعقيد، وهو أمر يثير الاستغراب .

و يرى الدكتور محمد الشريف قاهر في حكمه على شعراء العصر الغرناطي والمريني أنّ شعر ابن الخطيب (محكوم كغيره يفتقد التجديد والابتكار، إنه مجرد تكرار واجترار لما قاله الشعراء السابقون، بخفوت حيناً ، وبقوة ذكاء أحياناً أخرى، حسب ثقافة الشاعر وموهبته وخياله وإحساسه)<sup>(٣)</sup> وهذا الرأي فيه كثير من التعميم قد لا يكون متطابقاً تمام الانطباق على شاعرٍ أكثر طرق أغراض الشعر كلها كابن الخطيب، وحملت قصائده هموم جيل من المغتربين ، وعبرت عن واقع تتلاطم فيه أمواج الصراعات والتقلبات.

لقد حقق ابن الخطيب لنصوصه الشعرية تكاملاً في العناصر والأجزاء حين زواج بين الجمال الداخلي للنص بلغته وموسيقاه وبين جمال عناصره الخارجية حين تتفجر المعاني في النص عن طريق تتابع وتسارع صوري ، فالشاعر يحرك النص بتقنيات أسلوبية تحقق هدف الوصول إلى المتلقي عبر التناسق الصوري .

(١) الخبرة الجمالية، توفيق سعيد ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ١٩٩٢، ط١، بيروت،

ص ٣٤١.

(٢) فنون النثر الأدبي في آثار لسان الدين بن الخطيب، المضامين والخصائص الأسلوبية، د. محمد

مسعود جبران، دار المدار الإسلامي، بيروت ، لبنان ، ط١، ٢، ٢٠٠١/٣٩٢

(٣) الديوان، المقدمة ، ١٢٥

لقد شعر ابن الخطيب وهو اللاجئ السياسي ( بالأعاصير العاتية التي صارت تتهدد المملكة المرينية ، وتمتد أسنتها الحارقة إليه )<sup>(١)</sup> والمنتعب لقضية الهوية عند الأندلسيين المغتربيين يدرك أنها أصبحت مشكلة، تحدث اضطراباً، بفعل حالة القلق الناتج عن الاغتراب والشتات حين وجد الأندلسيون أنفسهم منشطرين بين الانتماء للأندلس بتاريخها الحافل بالفخر والانجازات و مجتمعات جديدة لم تمنحهم قدراً كافياً من الشعور بتحقيق الذات ، وحالة تقهقر وتراجع يعيشونها، لقد وصف ابن الخطيب حالة الأمة الأندلسية بأنها " الأمة الغريبة"<sup>(٢)</sup> . ويحمل هذا التصوير دلالة مأساوية عن عمق معاناة الأندلسيين وشعورهم أنهم صاروا يعيشون نكبة حقيقية حين غدت جزيرتهم معزولة يحيط بها البحر من جنوبها والأعداء من جهاتها الأخرى وافتقر أهلها إلى وسائل الدفاع عن وطنهم ، ويعدُّ ابن الخطيب من أكثر من واكبوا الأحداث الخطيرة التي عانتها الأندلس فالأسبان يُسقطون مدنها الواحدة تلو الأخرى ، والإمارات الأندلسية تعاني صراعات وضعفاً يفتك بها أشد الفتك ، وقد لجأ ابن الخطيب إلى توجيه رسائل الاستصراخ والحث على الجهاد يستهض بها الهمم ويستصرخ المسلمين حكماً ورعايا لنصرة الأندلس، وقد عدَّ المقرَّب له إحدى عشرة رسالة في هذا الباب<sup>(٣)</sup> والهوية تُعبر عن حصيلة التداخلات بين الفرد و محيطه الاجتماعي سواء أكان قريباً أم بعيداً، ويبدو النص قد حقق حالة من التماسك الفني عبر التواشج بين الأنساق الفنية<sup>٤</sup> والمضامين الفنية التي يحوم النص حولها.

### خاتمة:

من خلال استقراءنا لنصوص ابن الخطيب ولا سيما في فترة اغترابه القسري في المغرب، وجدنا أنَّ روح الأندلس كانت حاضرة بقوة في شعره، وعبرَّت قصائده عن أزمة حقيقية نشبت في المجتمع الأندلسي ، هي أزمة الهوية ، وهذه الأزمة كانت حاضرةً بقوة في مطلع الوجود الإسلامي في الأندلس لكنها عادت للظهور بقوة في عصورها المتأخرة،

(١) م. ن. ، ٦٣/١ .

(٢) الإحاطة في تاريخ غرناطة، ٥٤٣/٤

(٣) نفع الطيب، المقرَّب، ٤٤٦/٤

حين بدأ التراجع أمام زحف الجيوش القشتالية ، عندها استشعر الأندلسيون خطراً وجودياً حقيقياً يهددهم ، ولم يألُ الشعراء والأدباء جهداً في التنبيه إلى المخاطر المحدقة ، لكن الأزمة كانت قد استقبلت . ومشاكل الهوية تظهر دائماً في أوقات الأزمات وعندها تحتاج المجتمعات إلى روح قيادية تنتزعها من السقوط في مرحلة "استلاب الهوية" وضياعتها ، وهذا ما افتقدته الأندلس في تلك الفترة العصيبة.

### **The question of identity in the poetry of Lisaneddine bin al-Khatib( 776H)**

**Asst.Prof. Dr. Bashar Nadeem Ahmed Al-Bajajy**

#### **Abstract**

The term identity suffers from ambiguity due to the importance it enjoys, and its interference in various fields of knowledge, with the concept of the possibility of change and development through the paths of human thought, and the identity of Andalusia was always at stake, especially in the beginnings of the Arab-Islamic presence there. But the identity of Al-Andalus also emerged at the end of the Islamic presence again to occupy a prominent position due to the magnitude of the challenges faced by the Islamic presence there and the tragic end. The issue of expression of identity and excellence began to appear strongly in the poetry of Lsaneddine bin al-Khatib, in a time when he lived full of serious existential challenges.

The follower of ibn al-Khatib's poetry finds that much of his poetry was a mirror of his active political role, and we find that the poet 'I'm' is a "we", which represents his national and religious affiliation, and this identification was necessary to preserve the identity of Andalusia, which was threatened by violent crusades that threaten its existence.

One manifestation of a sense of belonging to a central identity is the feeling of pain and sorrow that appears in ibn al-Khatib's poems when he was exiled, and this feeling is the result of a latent sense of the poet's extravagance of a single belonging that brings him together with those who have been wronged.